نماذج من دور الحواضر المغاربية في تأسيس الدراسات اللغوية والقرآنية

Samples of the contributions of the Maghreb Linguists in the foundation of the linguistic and the Quranic studies

د. محمد خليفاتي

جامعة يحيى فارس بالمدينة - الجزائر

الملخص:

الملاحظ أنّ بعض الدارسين يزعمون أنّ البلاد المغاربية لم يكن لها شأن في الحراك الفكري الثقافي خاصة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وأنّ ليس هناك البتة مدرسة مغاربية متميزة في الدراسات اللغوية والتفسير، بل كان المغاربة متلقين ليس إلا، وأن العلوم مشرقية دوماً، مع أن العالم الإسلامي مشرقه ومغربه أسهم في بناء صرح حضارة راقية سادت العالم قروناً، وكان لعلماء الحواضر المغاربية دور متميز في ذلك، فكانت تيهرت الرستمية، وفاس الإدريسية، والقبروان الأغلبية، وبجاية الحمادية، وأشير الزيرية، وكلها أنجبت علماء أفذاذاً، ومفسرين نحارير، ولغويين نحاة فطاحل، بقيت آثارهم شادة لهم بالسبق والتميز.

الكلمات المفتاحية: المدرسة المغاربية - الفتح - الحواضر - إسهامات العلماء المغاربة - الدراسات اللغوية - الحديث - التفسير.

Abstract:

Some scientists researchers and historians claim that the Maghreb countries were only recipients and did not have any participation in cultural and intellectual mobility, particularly in the era of the flourishing

of Islamic civilization, and that there is absolutely no Maghreb school distinguished in linguistic studies and interpretation.

This research aims to answer these statements and clarify the distinctive role of the Maghreb in the Arab scientific and literary movement following the various countries and civilizations that have passed through.

Keywords: Maghreb school – conquest–urban – contributions of Maghreb scientists–linguistic studies – Hadith–interpretation

مقدمة:

كان الفتح الإسلامي للمغرب العربي مُنقذاً من التبعية والظلم والضلال؛ حيث نفخ الروح في أوصال المجتمع المغربي، شرقه وغربه، وأعاد إليه كينونته، ومدّه بإكسير الحياة، ونفخ في أهله روح العزيمة، وأذكى في جواهرهم شعلة العلم والمعرفة، وحرّر عقولهم من الجهل، وواقعهم من الأمية، وجعلهم مشاركين في الفتوح، كما هيأهم ليكونوا فعّالين في ميدان الفكر والإبداع، وذلك بما نشره بينهم من وعي وتبصرة بحقائق الإنسانية والوجود، فلبّوا النداء، وانضوا تحت راية الإسلام بعد فهم واقتناع، وأضحوا مُسهمين في بناء صرح الحضارة التي امتدت من بخارى وطشقند شرقاً، إلى سهل بواتيينه (بلاط الشهداء) أربعةً وثلاثين كيلومتراً، من باريس غرباً، وما ذلك إلا لتمكّن روح الإسلام السمحة من نفوسهم، وتغلغل روح الإيمان في أعماقهم.

فكانت الحواضر العلمية المغاربية تُضاهي، بل تبرز حواضر الشرق، كتيهت الرستمية، وفاس الإدريسية، والقيروان الأغلبية، ثم بجاية الحمادية، وتلمسان الزيانية، وأشير الزيرية، وغيرها، فانتعشت العلوم وازدهرت المعارف بثنتي أصنافها؛ فكانت الدراسات الشرعية لإستيعاب خصائص الدين الجديد، والدراسات اللغوية تعضد الدراسات القرآنية وتوضح أسرارها، ثم إنداحت مختلف العلوم كالرياضيات، وعلم الفلك وعلم الأمصار، وغيرها من العلوم.

وبعد هذا، ما هي عوامل ازدهار تلك الحواضر؟ ومن هم أبرز أعلامها المؤسسين في اللغة والدراسات القرآنية؟ وبم اتسمت تلك الإسهامات؟ وهل كان لها صدى خارج تخومها؟

ذلكم ما سأعمل على بحثه من خلال نماذج من إبداعات رجالات اللغة، والدراسات القرآنية.

1- أثر سياسات الفاتحين الرشيدة على انصواء المغاربية تحت راية الإسلام:

لم تكن الجزائر بمعزل عن الهبة المباركة التي أنعم الله بها على العالم الإسلامي عامة، والمغرب العربي خاصة، في العصور الزاهرة، إذ كان لسياسة الفاتحين الحكيمة، المؤسسة على اللين والتسامح أثرها الطيب في نفوس المغاربة، فلبّوا النداء، فكانوا رجال فكر، وبناء حضارة، ولم تكن ربوع الجزائر بمنأى عمّا يجري من حراك ثقافي علمي متميز، هزّ كيان المجتمع الإسلامي، فاستجاب له مليئاً، فقد كان علماء الجزائر من الرعيل الأول الذي بنى صرح الحضارة

الإسلامية المتميز الذي امتد من بخارى حتى سهل الشهداء في مختلف المجالات الفكرية والمعرفية، وذلك منذ الفتح الإسلامي.

لقد توالى حملات الفتح للبلاد المغاربية منذ الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، حيث فتح البطل عمرو ابن العاص مصر وتوغل في ليبيا، حتى وصل إلى طبرقة، ثم كانت حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (27 هـ / 646م) الذي جاء فاتحاً لبلاد المغرب، وتغلب على "جرجير"، ولكنه لم يُنمَّ الفتح، فكانت حملة معاوية بن حديج (40هـ / 46هـ) الذي قاد جيشاً فيه كثير من الصحابة من بينهم عبد الله بن الزبير¹، وواصل الفتح، غير أنه استعصى عليه.

وتوالى الحملات فكانت حملة عقبة بن نافع الفهري (50هـ/670م) في عشرة آلاف فارس، حيث إخطط القيروان عاصمةً، وتوغل في البلاد حتى المحيط الأطلسي، مستشهداً في (64 هـ/684م)، وتم فتح بلاد المغرب كلها بفتح الأندلس سنة 97هـ.

ودان المغرب كلُّه للإسلام، وامتزج الفاتحون بالسكان إمتزاج أخوة في الدين، وامتزاج تصاهر وتسامح، حتى لم يعد هناك غريب عن البلاد. قال اليعقوبي "في مدينة القيروان أخلط بين الناس من قريش، ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان، وبها أصناف من العجم، من أهل خرسان ومن كان

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ج1، 81.

ورَدَها مع عمال بني هاشم، ومن الجند، وبها عجم من بلاد البربر والروم، وأشباه ذلك¹.

2- دور الخلفاء في رولج العلم والمعرفة:

فما إن فُتحت بلاد المغرب العربي وانتشر الإسلام بين ربوعها، وتمثَّله أهلها بعد فهم واقتناع، حتى ظهرت ثمار ذلك، فتأسست المدارس ودور العلم، وحواضر الثقافة الإسلامية الأصيلة، إذ تولَّى الخلافة علماء أفذاذ، وفقهاء نحارير، وتسابقوا على بناء صرح العلوم، فشجعوا العلم وأجازوا العلماء الذين تفرغوا للدراسة والبحث، وارتحلوا لطلب العلم من فاس إلى القيروان ومن تيهرت إلى بغداد، ومن تلمسان إلى الأندلس، وأحس المغاربة بأن لهم مدرسة ثقافية للدراسات القرآنية والفقهية خاصة، على غرار مدارس المشرق².

لقد تنافست الحواضر المغاربية، على نشر العلم واستقطاب العلماء، وتشبيد المدارس والمكتبات، واقتناء أمهات الكتب ونفائسها، وتشجيع حركة التأليف والترجمة، فراجت المعرفة، وأبدع المغاربة تأليفاً وتصنيفاً فاغتنت المكتبات العامة، بله الخاصة، إذ بلغت كتب مكتبة الحكم بن الناصر بقصر الزهراء أربعة مئة ألف

¹ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضنكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص 187.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 162.

مجلد، وكان في غرناطة وحدها سبعون مكتبة، هذه المكتبات الفريدة، هي التي أحرقتها فردينال الكاثوليكي بعد سقوط غرناطة¹.

فقد كان الحكام والأمراء المغاربة متقنين فقهاء، فتنافسوا على اقتناء الكتب، وإنشاء دور العلم وتكوين المكتبات لتسهيل المعرفة واغتناء الثقافة المتنوعة، تمثيلاً وروح العصر، فكانت مكتبة الرستميين التي تسمى (المعصومة) تزخر بالعديد من المؤلفات في شتى العلوم، واختلف في عدد كتبها فهناك من عدّها بالآلاف، كما كانت بالقيروان دوراً للعلم، ومكتبات عامرة، أشهرها مكتبة القيروان الكبرى، التي كانت زاخرة بأمهات الكتب في اللغة والتفسير، والحديث، والطب، والرياضيات، كما ضمت أروع المخطوطات، بما فيها المصحف الذي كتبته حاضنة باديس بخطها، ولا تزال هذه النسخة بالمكتبة الوطنية بتونس، أمّا مكتبة الزيتونة التي ازدهرت في العهد الحفصي (في عهد أبي الفوارس 797هـ وحفيده)، فقد خربها الإسبان بعد احتلالهم تونس عام 980هـ؛ حيث داستها سنايك الخيل التي رُبطت بصحن جامع الزيتونة².

وقد كان عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بتيهت (160هـ/ 269هـ)³ فقيها عالما بالقراءات، حيث فسر القرآن الكريم، في سفر ظل يحظى باهتمام كبير من المهتمين، ولم يكن الأئمة الرستميون (الثمانية) الذين تداولوا على

¹ نفسه، ج2، 357.

² محمد بلخوجة، صفحات من تاريخ تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 198.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص160.

الإمامة في هذه الدولة بأقل اهتماماً منه بالعلم والعلماء، بل سلكوا مسلكه، فكانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، لغة الإدارة والدواوين والعلوم والأدب، بينما ترجمت بعض الكتب الدينية إلى اللهجة المحلية لتعميم العلم والمعرفة¹، وكانت لغة الطبقة الاجتماعية العليا هي الفصحى، وكذا لغة العلوم والإدارة، كما كانت لغة التعليم والقضاء²، وتعززت اللغة العربية بوجود بني هلال؛ حيث شاركوا بطريقة عفوية، ولكنها فعالة في تعريب المغرب العربي، إذ كانوا قبائل بدوا أقحاحا إشتغلوا بالرعي والتجارة، واختلطوا بالسكان، وتبؤدلت المنافع والأغراض، وحصل الاتصال والتواصل، فكانت العربية ترجمانا للأفكار، فتعرب اللسان المغاربي، وكانت حدود الدولة الرستمية هي حدود الجزائر اليوم، بل امتدت شرقاً إلى الجبل الغربي بليبيا (قبيلة نفوسة) فكان أهل الجبل بليبيا يؤدون الزكاة لتيهت الرستمية³، وكانت تيهت تسمى (العراق الصغير) لكثرة سكانها وتنوعهم، وكثرة بضائعها، وتسامحها الفكري والديني. فكانت المناظرات الدينية والمذهبية تعقد في المساجد بحرية، وأتمتها يشتركون في المناظرات والمجادلات بتسامح، وقبول الرأي الآخر⁴، وبعد

¹ نفسه.

² الشاذلي البويحي، الحياة الأدبية في العهد الحفصي بتونس، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1966، ص224.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 160.

⁴ المرجع نفسه، 1/ 162.

وفاة ابن رستم 168هـ خلفه ابنه عبد الوهاب الذي دام حكمه عشرين سنة¹، سار فيها على نهج أبيه في خدمة العلم والاحتفاء بالعلماء.

ينقل المؤرخون بأن تيهرت كانت مركزا للدراسات الإسلامية في المغرب العربي، وأصبحت تنافس الحواضر الأخرى في الدراسات اللغوية والقرآنية، ومختلف العلوم، فاغتنت الثقافة، وازدهرت بمختلف تخصصاتها، فكانت الدراسات اللغوية بمختلف فروعها، وكذا الدراسات القرآنية والأصولية والفلسفية بكل مذاهبها؛ وذلك نظراً للتسامح الديني والحرية المذهبية في شتى صورها، فكانت الترجمة إلى اللغة العربية ومنها إلى لغات أخرى، واشتهر من التراجم أبو سهل الفارسي من أحفاد الإمام أفلح الذي ترجم الدواوين الحكومية، ويقال إنه كان أفصح أهل زمانه، وله دواوين شعر².

3- نماذج من أفضاد الحواضر المغاربية:

3-1- اللغخ:

ومن علماء اللغة الجزائريين المتفردين: "عاصم الصدراتي"، هذا اللغوي الذي كان يجوب القرى والمدن وسكان جبال الأوراس، يعلم الناس اللغة في وعظ

¹ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، دار الثقافة ببيروت، لبنان، ط3، ج1 ص197-198.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/162.

وإرشاد، ومن تلاميذه اللغويين "أيوبُ بنُ عباس"، و"أبو الحسن الأبدلاني"، و"محمد بن يانس"¹.

وهناك عالم لغوي محدثٌ تراحم ببابه طلاب العلم من كل حذب، وهو موسى بن يونس النفوسي، ومن لغويي الجزائر التيهريين "علي بن صابر" قاضي ميلة، الذي كان آية في اللغة بلغة الفقه، و"يهودا بن قريش" اللغوي النحوي الصرفي، الذي كان يتقن لغات عدة كالفارسية والعبرية والآرامية، بالإضافة إلى العربية بكل فروعها، وهو الذي سبق زمانه في الدراسة المقارنة؛ حيث حاول المقارنة بين اللغات التي يتقنها، في هذا الوقت المبكر الذي كانت الأمية فيه تضرب أطنابها في أوربا قاطبة، وهو الذي جعل في هذا الوقت المبكر أيضا النحو التنظيري²، وله كتاب في فقه اللغة، يقال إنه موجود في مكتبة إكسفورد³.

ومن النحاة اللغويين الجزائريين "محمد القزّاز" أستاذ القاضي اللغوي التاهرتي⁴ ابن الريب، الذي منحه تكويناً كاملاً في اللغة والأدب، خاصة في الأخبار والأنساب، كان ابن الريب لغوياً أديباً شاعراً، وكاتباً ساخرًا، وفوق هذا كله كان قاضياً فقيهاً⁵.

¹ تاريخ الجزائر الثقافي، 1/162.

² نفسه، ص 166.

³ نفسه، ص 223.

⁴ النسبة تكون تاهرتي، وتيهرتي؛ لأن اسم المدينة: تيهرت، وتاهرت، أي اللبوة باللهجة المحلية.

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/ ص 328.

ومن علماء اللغة الجزائريين الذي شهد لهم القاصي قبل الداني، "عبد الله الشريف" (ت771هـ) اللغوي النحوي الفقيه، وقد رحل إلى تونس، ولقي الشيخ "ابن عبد السلام" وأفاد منه ومن غيره من علماء تونس ثم رجع إلى تلمسان، وانكبَّ على التدريس، فكان له تلاميذٌ كُثُر، وهو الذي قال فيه ابن فرحون: "علامة المغرب على الإطلاق"¹، وقال فيه ابن مرزوق الحفيد: "شيخ شيوخنا بإجماع"².

واشتهر من اللغويين النحاة الأصوليين "أبو الفضل النحوي" التوزري المولد، القلعي المقام والتدريس؛ حيث نهل من علوم عصره العقلية والنقلية، ثم تفرغ لتدريس اللغة والنحو والقرآن الكريم، كما كانت له سمعة عند العامة والخاصة، وهو الذي كني (بغزالي المغرب)، وهو الذي قال فيه أبو عبد الرحمن بن حماد: "إنه في بلادنا بمنزلة الغزالي في المشرق علما وعملا"³.

و"أحمد النقاوسي اللغوي"⁴، الذي تلقى تعليمه بموطنه، ثم رحل إلى تونس وأخذ عن علمائها أمثال ابن عرفة، وشاء له القدر أن يدرس على ابن خلدون حين كان بتونس، كما زار النقاوسي تلمسان ويبدو أن ذلك كان في أخريات حياته، لأنه توفي بها سنة 737هـ، هذا اللغوي الذي كان ضليعا في علوم اللغة، فقد نقل مترجموه أنه كان نحويا، عروضيا، بلاغيا، ألف في ذلك مؤلفات،

¹ نفسه، 1/384.

² نفسه.

³ المرجع السابق، 1/559.

⁴ ينظر: أحمد الطويلي، الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، دط، 1996، ج1، 182.

منها: (إيضاح السبيل في علم الخليل)، و(شرح قصيدة ابن الحاجب) في العروض، وكتابه في البيان، الموسوم (حديقة الناظر في تلخيص المثل السائر)، ويبدو أنه تلخيص لما زخر به كتاب ضياء الدين بن الأثير في عيون الشعر، وروائع الأدب، وأفانين القول.

كما نُقِلَ أن له في البلاغة، مؤلفا، وهو (رسالة في إحكام صناعة الكلام)، بالإضافة إلى (شرح كتاب المصباح) لابن مالك في المعاني والبيان والبديع، ونسبت إليه أعمال عديدة في اللغة، منها شرح على المنفرجة، أو قصيدة ابن النحوي في الصبر، والتي منها:

اشتدي أزمة تنفرجي * * قد آذن صبْحك بالبلج

وظلام الليل له سُرج * * حتى يغشاه أبو السُرج

وسحاب الخير له مطر * * فإذا جاء الإبانُ تَجِي

وفوائد مولانا جمل * * لسروح الأنفس والمُهَج

والخلق جميعا في يده * * فذوو سعة، وذوو حَرَج

3-2- الكتاب والخط:

ومن فروع الدراسة اللغوية، دراسة أساس الكتابة وهو الخط؛ حيث اهتم الخلفاء بالخط العربي وكان لهم كتبة يتولون الكتابة الإدارية من دواوين ومراسلات، واشتهر من الكتبة الخطاطين إبراهيم بن موسى المرديني، الذي كان

بارعا في الخط الرياشي، وهو خط نادر في المغرب العربي، وكذا باقي الخطوط، كما اشتهر من الخطاطين عبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي، الذي كان بارعا في الخط في الخطوط المحلية، والخط الريحاني، والديواني والكوفي.

ومن مظاهر ازدهار الخط في المغرب العربي، أنّ معظم أفراد المجتمع آنذاك كانوا يتقنون الكتابة، رجالا ونساء، واشتهر من النساء الخطاطات السيدة فاطمة حاضنة المعزّ بن باديس، ودرة الكاتبة، التي قيل إنها نسخت المصحف الشريف، المحبوس على جامع القرويين.

3-3- دراسات الحديث الشريف:

بعد إستتباب أمور الفتح، ازدهرت دراسة الحديث الشريف من توثيق وشروح ورواية، واشتهر محدثون ثقات مغاربة، من أمثال المحدث الشاعر "أبي عبد الرحمن بن حماد بن سمك" التاهرتي المولود سنة (815/208م) الذي رحل إلى القيروان، وأخذ عن الإمام سحنون، وعون بن يوسف، كما أخذ ثقافته عن علماء اللغة والأدب، أمثال اللغوي مسور، وعمر بن مرزوق.

وفي تونس كان "إبراهيم بن أغلب" مؤسس الدولة الأغلبية (184هـ/296هـ) أميرا على إفريقيا، وعلى طينة ويسكرة، وكان عالما، حافظا

للقرآن الكريم فقيها، أديبا، شاعرا، وخطيبا¹، ولهذا اهتم بالعلم والأدب وشجع العلماء، وارتحل إليه الفقهاء.

وبنى دور العلم، وكذا اشتهر معظم الأغلبية الذين شيّدوا مسجد القيروان الذي وضع أساسه عقبة بن نافع، كما أنّ الأغلبية هم من فتحوا صقلية بقيادة العالم الفقيه القاضي أسد بن الفرات.

وفي مجال الحديث، نجد التابعي الفقيه المحدث، "القاضي عبد الرحمن المعافري"، فقد روى عن فقهاء أجلاء، من المشرق، منهم يوسف الثوري، وعبد الله بن لهعية، وعبد الله المقرئ²، وقد شهد له سحنون بالعلم والمعرفة.

كما كان حافظا للحديث، راوياً له، وشهد له بذلك مترجموه "إن الأحاديث التي رويت عنه بلغت خمسمائة حديث"³.

واشتهر بالحديث روايةً وشرحاً في المغرب العربي محدّثون أكفاء، ورواة ثقات، تناقلت الكتب أخبارهم، لا يقلّون علما ودراية عن العلماء في المشرق العربي، من أمثال: الإمام المحدث "ابن فروخ"، الذي زار المدينة المنورة، والتقى

¹ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج1، ص95.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص175.

³ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، ص32.

مالكا وأخذ عنه، وتبادل وإيَّاه المكاتبات فيما بعد، كما اتصل بأبي حنيفة ببغداد وظل يطلب العلم بالمشرق على فقهاء نحائير من أمثال سفيان الثوري¹.

3-4- التفسير:

لقد كان لعلماء المغرب العربي باع في الدراسات القرآنية قراءةً ونسخاً وتفسيراً، وما ذلك إلا تعلقاً بالقرآن، وحباً لكل ما يتصل بالدراسات الإسلامية، وقد ظهر اهتمام المغاربة بالدراسات القرآنية مبكراً، وإن كانت الإرهاصات الأولية نادرة، إلا أن ما وصلنا من أوائل التفاسير يُنمُّ عن دراية واقتدار، وممن اشتهروا بالتفسير في القرن الثاني -ولا يمكن أن يكون ذلك في القرن الأول؛ لأن الفتح لم يتم إلا آخره- مفسرون كثر، نذكر منهم:

- يحيى بن سلام البصري من علماء القرن الثاني الهجري، الذي قام بتفسير القرآن الكريم، هذا التفسير الذي كان له صيت في المغرب العربي كله، حيث قام حفيده محمد بإشاعته بين الناس في ربوع المغرب، في القرن الثالث الهجري، مع الملاحظ بأن هذا الحفيد كان مفسراً أيضاً².

- ومن بين الذين تأثروا بتفسير يحيى بن سلام، العالم الفقيه المفسر الجزائري "هود بن محكم الهواري الأوراسي"، المنتسب إلى قبيلة هوار، والذي عُدَّ في الطبقة السادسة، وتفسير الهواري مطبوع، قام بتحقيقه بلحاج بن سعيد شريقي،

¹ تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 325.

² المرجع السابق، ج1، 172.

دار البصائر، الجزائر 2011م، ويرى الباحثون أنّ تفسير الهواري من التفاسير الأولى التي ظهرت في عصر التدوين ببلاد المغرب، وهو أقدم تفسير جزائري مدون¹، ويرى الدكتور سعد الله أنّ الشماخي من أهل القرن العاشر الهجري، هو أول من ذكر المفسر هود في كتابه السير، وأشاد بتفسيره.

وقد عاش الهواري - كما قال سعد الله- في الأوراس، وسافر إلى القيروان، ثم إلى تيهرت طلباً للعلم، وسار في تفسيره على نهج القدماء كما يقول الباحثون، ولم يتعرض إلى الجوانب النحوية والبلاغية، ونحا في طريقة تفسيره منحى القدماء، واعتمد على ابن عباس كثيراً.

- **تفسير ابن ورياش الوهراني:** يذكر المؤرخون أنّ لعلي بن عبد الله بن ورياش الوهراني تفسيراً، ولكن لم يُعثر عليه، لكون صاحبه الذي ولد سنة 537هـ، ودرس بمسقط رأسه، وحذق اللغة وعلوم عصره، سافر - إثر إستيلاء الموحدين على وهران- إلى الشام، ونزل دمشق، واستقر بها، وتظهر مكانة ابن ورياش العلمية في كونه عُيِّن خطيباً بمدينة داريا السورية، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على مكانة هذا العالم ومقامه، وتبحره في مختلف العلوم النقلية والعقلية، وإلا ما وجد له مكانة في بلاد الشام، وما تبيّأ منبراً للخطابة هناك، حيث العلماء والخطباء المصاقع.

¹ نفسه.

لقد نوّه المؤرخون بعلم ابن ورياش، وقدرته على التفسير والتصنيف، فقالوا عنه: "وله تفسير للقرآن، أجاد في تصنيفه"¹، ويذكرون لابن ورياش أشعاراً مؤثرة في الشوق والحنين إلى مسقط رأسه وهران، وهذا لما كان مقيماً بالشام، إماماً بمدينة داريا.

- **المفسر الثعالبي 786هـ/875هـ:** عبد الرحمن الثعالبي العالم الزاهد، المفسر، ولد بمدينة يسرّ ودرس ببجاية الحمادية، وتلمسان وتونس، وعواصم المشرق، ثم عاد إلى الجزائر، طافح الوفاض بالعلم والمعرفة العقلية والنقلية، ولمقامه العلمي، حصل على إجازات عديدة من شيوخه في المشرق والمغرب، كابن مرزوق الحفيد، وعلي المانقلاتي، وأبي القاسم البرزلي².

وتفسيره موسوم بـ: (الجواهر الحسان، في تفسير القرآن)، وهو تفسير مطبوع عدة طبعات، وهناك من عدّه اختصاراً لتفسير ابن عطية، كأبي القاسم سعد الله.

ونقل المؤرخون أخباراً عن تفاسير أخرى، لمفسرين جزائريين، كما أشار إلى ذلك أبو القاسم سعد الله، فقد نُسب إلى "محمد بن يوسف السنوسي" تفسير، يقال إنه اختصر فيه "حاشية التفتراني"، على الكشاف للزمخشري، كما نسبوا إليه تفسيراً آخر، قيل إنه يقع في ثلاثة كراريس، ومن المفسرين الذين تُتوقلت أخبارهم،

¹ محمد بن شريفة، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1417هـ/1996م، ص57.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/176.

وثوّه بتفاسيرهم، "محمد بن عبد الكريم المغيلي"، صاحب البدر المنير في علوم التفسير¹، والملاحظ على العنوان أن صاحبه متمكن في التفسير (علوم التفسير)، بيد أنه لم يصلنا منه ما يجعلنا نطلع على عمل هذا المفسر الفذ.

- ومن المفسرين الذين تداولت أخبارهم: "الحسن بن علي المسيلي"، الثائر على حكم المرابطين الرافض لإحراق كتاب أبي حامد الغزالي (إحياء علوم الدين) الذي أمر بإحراقه يوسف بن تاشفين؛ حيث ردّ على ذلك بمؤلفه (كتاب التفكير، فيما تشتمل عليه السور والآيات، من المبادئ والغايات)²، وهذا الكتاب أشاد به كثير من العلماء، وقيل فيه: "كتاب جليل، سلك فيه مسلك إحياء علوم الدين للغزالي"، ويقال إنه بسبب موقفه الرافض ذاك، لُقّب بأبي حامد الصغير³.

- تفسير الشريف التلمساني: الشريف التلمساني، لغوي محدث مفسر من الطراز الأول، نشأ بتلمسان وأخذ عن شيوخها، أمثال: ابن هدية القرشي، وعمران بن موسى المشدّالي، والآبلي ثم ارتحل إلى تونس طلباً للعلم، فأخذ عن عالمها وفقهها ابن عبد السلام، وغيره، وبعد ذلك شدّ الرحال إلى المغرب، وأخذ عن السّطي؛ فكان مفخرة المغرب العربي كله، وأشاد بمكانته ابن خلدون، اشتهر بالعلوم العقلية التي برع فيها، كالمنطق والحساب والفرائض، والتنجيم، والهندسة

¹ المرجع السابق، 1/177.

² نفسه.

³ أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م، ص32.

والموسيقى، بله تميزه في الحديث النبوي الشريف بكل مصطلحاته، كان متقناً للقراءات والروايات، وعلوم القرآن، كالبيان، وأحكام الناسخ والمنسوخ، وغيرها، كما نقل ذلك أبو القاسم سعد الله¹.

ويعدّ الشريف التلمساني أول مفسر جزائري، وربما أول مفسر مغاربي يقضي مدة خمس وعشرين سنة، في تفسيره القرآن الكريم، لم يضاهاه في مدته تلك، إلا عبد الحميد بن باديس الذي فسّر القرآن الكريم في مدة ثلاث وعشرين سنة. هذا العمل المضني، الرائع في الوقت نفسه من الشريف التلمساني، قد صاغه في تفسير ضخم، أثار إعجاب العلماء في تونس والمغرب الأقصى، قبل علماء الجزائر، وقد وصفه من عاصره، وترجم له بأنه أعلم أهل عصره بإجماع².

ولشهرة الشريف التلمساني في التفسير، قيل إنّ محمداً المقرئ الكبير طُلب منه إلقاء درس في التفسير في حضرة السلطان، بحضور الشريف، فاعتذر أن يتقدم والشريف حاضر، وذلك إحتراماً له، وتقديراً لمقامه، واعترافاً بعلمه، ومكانته في التفسير³. توفي الشريف بتلمسان سنة 4771⁴، قال عنه ابن مرزوق الحفيد: "شيخ شيوخنا، أعلم أهل عصره بإجماع"⁵.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 178/1.

² المرجع السابق، 179/1.

³ نفسه، 179/1.

⁴ أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص771.

⁵ نفسه.

كما أنّ للشريف التلمساني كتاباً قيماً في أصول الفقه، تناقله الفقهاء، وأفاد منه علماء الأصول، وهو كتابه (مفتاح الوصول، في علم الأصول) وهو كتاب مطبوع، محقق، طبع على نفقة الحاج (أحمدو بيلو) رئيس حكومة نيجيريا الشمالية، وبإشراف الشيخ أبي بكر محمود قمي قاضي قضاة نيجيريا¹.

وقد ذكر المؤرخون أسماءً لمفسرين جزائريين كثر، ابتداء من دولة الرستميين حتى فترة العثمانيين، ولم يخلُ عصرٌ من علماء في التفسير، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فقد أشاد العلماء بالفقيه المفسر يوسف الورجلاني هذا العالم المتميز الذي درس بموطنه (ورجلان) ورقلة حالياً، ثم رحل إلى الأندلس ودرس على خيرة علمائها، مختلف العلوم اللغوية والدينية، وما يتعلق بعلوم التفسير، فتضلّع فيها، وعاد إلى الجزائر، وساهم في تفسير القرآن الكريم؛ حيث ألف تفسيراً، يقال إنه بلغ عدة أجزاء، وجاء ذلك في كتابه (الدليل لأهل العقول)، كما له كتب في التاريخ، منها (فتوح المغرب) في جزأين، وله كتب في أصول الفقه، منها (العدل والإنصاف) في ثلاثة أجزاء. وله قصيدة في علم الكلام في خمسمائة بيت، وألّف في الفلسفة كتاب (مروج الذهب)، كما له مؤلفات في الحديث، منها كتابه (الجامع الصحيح)، كتاب مطبوع. ويرى أبو القاسم سعد الله أنّ الورجلاني أبرز أدباء عهد المرابطين، ومفسري القرآن الكريم، ومؤلفي كتب التاريخ والفلسفة والفقه².

¹ تاريخ الجزائر الثقافي، 1/181.

² ينظر: يوسف إبراهيم الورجلاني، الدليل لأهل العقول، القاهرة، ط1، 1306هـ/1980م.

ومن علماء الجزائر المفسرين، أحمد بن زاغو المغراوي التلمساني، الذي كان مدرسا للغة والحديث والتفسير، في المدرسة اليعقوبية شتاءً، واللغة والبيان والحساب والفرائض صيفا¹.

ونقل عنه، أنه كان متصوفاً، كما كان يخصص يومي الخميس والجمعة للتصوف، وتصحيح مؤلفاته، وأنه ولع بالفقه - بالإضافة إلى التفسير - حيث تخرج عليه في هذين الميدانين علماء مشهورون، أمثال يحي المازوني، صاحب: (نوازل مازونة في الفقه والفتاوى)، والحافظ التنسي مؤرخ بني زيان، وابن زكري، والقلصادي².

وأخذ عن إمام المغرب السيد العقباني، وعن العالم المفسر أبي يحي الشريف، له تفسير في شرح الفاتحة قال عنه الحفناوي: "له تأليف منها تفسير الفاتحة في غاية الحسن، كثير الفوائد، وشرح التلمسانية في الفرائض، وله فتاوى عدة في أنواع العلوم"³.

هذا فيض من غيض، عن إسهامات الحواضر المغاربية خاصة الجزائرية منها، في الدراسات القرآنية واللغوية، وفي الحديث الشريف، اتبعت فيه سبيل النمذجة، ولا أنهي العمل إلا بإيراد نموذج عما بلغته حواضرنا من مراتب سامقة في مختلف العلوم خاصة الدراسات الدينية عامة، والقرآنية الفقهية خاصة، في ذلك

¹ الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 46.

² الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 46.

³ المرجع نفسه، ص 42.

الوقت المتقدم، ومن أحاسن العلماء الفقهاء العالمان الفقيهان، الأخوان إينا الإمام محمد بن عبد الله إمام برشك¹:

وهما أبو زيد عبد الرحمن (ت 741هـ) وأبو موسى عيسى (749هـ) ولدا ببرشك²، قرب شرشال وتعلما بها، ثم رحلا إلى تونس للدراسة، فأخذا مختلف العلوم عن أكفاء العلماء، كابن القطان، والمرجاني، ثم عادا إلى الجزائر، ومنها إلى فاس، حيث نهلا العلم من أكبر علماء فاس كالسطي واليفريني، بعدها توجهّا إلى المشرق العربي، فزارا الحجاز وسوريا ومصر، وأخذا عن فطاحلها كالقزويني في الأدب والبلاغة، والشيخ الحجار صحيح البخاري، وتضلعا في مختلف العلوم العقلية والنقلية، وقبل رجوعهما لتقيا ابن تيمية، وناظراه في مسائل وتغلبا عليه كما ينقل مترجموهما، وقد شهد لهما جلال الدين القزويني بالعلمية والتفرد من بين علماء المغرب كله فقال: "بمثلهما يفتخر المغرب"

توليا القضاء بمليانة، ثم تفرغا لتدريس الفقة والتفسير والحديث واللغة، فتخرج في مدرستهما علماء أفاض، وفقهاء نحارير، من أمثال: اللغوي الفقيه المفسر الشريف التلمساني، والفقيه ابن مرزوق الجد، والنابغة المقرّي، والقاضي المنفرد أبو عبد الله الندرومي، الذي بلغ شأوا بعيدا في الفقه، وشهد له بذلك القاضي قبل الداني.

¹ برشك مدينة بين تنس وشرشال.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/389.

والملاحظ أننا أوردنا هذين الأخوين العالمين وغيرهما، لنبين أن علماء المغرب العربي وفقهاءه ومفسريه، ولغوييه كان لهم باع طويل، ودور ريادي في الإسهامات المعرفية العلمية في تلك الحقبة التأصيلية المتقدمة، على جميع المستويات، تجاوزت تلك الشهرة منطقة المغرب، إلى المشرق الذي أفاد من علوم المغاربة أيما إفادة، وأنّ الحواضر المغاربية خاصة الجزائرية، كانت زاخرة بالحراك الثقافي، يسمُّها التسامح الديني الحق ويحفِّرها فهمها الصحيح للإسلام الذي كانت أول سورة أشرقت في حناياه تدعو إلى القراءة وأخذ الأسباب للتعلم والتفكير في ملكوت الله، حيث قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خلق، خلقَ الإنسانَ من علق، اقرأ وربُّك الأكرمُ الذي علَّمَ بالقلم علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم﴾ [العلق: 1 - 5]

الخاتمة:

تكشَّف لنا من خلال هذا العمل المتواضع أنّ الحواضر المغاربية قد نافست أمّهات العواصم المشرقية، بعلمائها وفقهائها ومفسريها ولغوييها، فهذا الونشريسي بمعياره ضاهى ابن تيمية بفتاواه، وهذا ابن معطي الزواوي حاز ما حازه ابن هشام في مغنيه، وذاك الشريف التلمساني الذي برز أفرانه في الحديث والفقه.

وخلاصة القول أنّ التراث المغربي ثري، وأنّ المدرسة المغاربية اللغوية والفقهية عظيمة متميزة، لا تقل علمية ولا بحثاً عن نظيرتها المشرقية - إن لم نقل

تواضعا وتحفظا- أفضل وأعمق، وأكثر تأثيرا في الحراك الفكري التأسيلي الذي دام قرونا، ولولا دور الثراء الثقافي المغاربي، لأقل نجم التألق المشرقي.

توصية:

نظرا لثراء التراث المغاربي وتنوعه من جهة، وتغافل المناهج والبرامج عنه، نهيب بالأساتذة والباحثين أن يُولوه مزيدا من إهتمامهم، وأن يوجّهوا الطلبة الباحثين في مختلف المراحل وجهة مغاربية، وإن تعذر، فوجهة جزائرية، ففي ذخائر الرستميين، ونفائس الحماديين، وتراث الزيريين، ومؤلفات الزيانيين ثراء زاخر، وعلوم شتى راقية، تثبت تفوقنا الفكري، وتفردنا في مختلف العلوم النقلية والعقلية.

قائمة المراجع:

- 1- ابن عذارى، البيان المعرب في أخبار المغرب، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط.3
- 2- أبو العرب، طبقات علماء إفريقيا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، دت.
- 3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2015.
- 4- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة ببيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م.
- 5- أحمد الطويلي، الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان، دط، 1996.
- 6- أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضنكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- 7- الشاذلي البويحي، الحياة الأدبية في العهد الحفصي بتونس، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1966.
- 8- محمد بلخوجة، صفحات من تاريخ تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

مأذج من دور الحواضر المغاربية _____

9- محمد بن شريفة، تراجم مغربية من مصادر مشرقية، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1417هـ/1996م.

10- يوسف إبراهيم الورداني، الدليل لأهل العقول، القاهرة، ط1، 1306هـ/1980م.